الى المعركة من أجل مصر

كانت سلمى تغني لطفلتها كي تنام فنشز معها اللحن وأبى أن يستقيم، فكفت والتفتت الى زوجها الذي جلس في مقعد مريح في غرفة النوم وأخذ يقرأ صـحيفة المساء، وقالت باسمة:

- وأخيرا لا يمكن لصوتي أن يكون جميلا!

وضحك العقيد عادل وقال بصراحته المعهودة الممزوجة بالدعابة:

- طبعا وأنت لا تكفين عن رفع عقيرتك بالغناء!

ورفعت سلمى حاجبيها بدهشة مرحة وقالت:

- بالله عليك أليس جميلا؟ انك لم تبد ملاحظة وأنت تسمعني منذ أعوام، والاّ كنت كففت عن إزعاجك..

وضحك العقيد مرة أخرى وقال:

- وماذا أفعل؟ كنت أقول لا بد أن تكتشفي الأمر بنفسك يوما ما..

ضحكت سلمى وقالت وهي تغطي طفلتها:

- ولكن من الغريب أنه يعجبني.. انني أرتاح وأنا أغني لنفسي..

- اذن غني!

- لا.. لقد أخجلتني..

- انه ليس مزعجا على كل حال..

ولم يلبث أن سمع بوق الإنذار، وانقطع التيار الكهربائي فجأة، ولفّت الظلمة المكان، فهب العقيد عادل واقفا وهتف بزوجته:

- هيا أسرعي! ناوليني الصغيرين وامسكي أنت بطرف سترتي حتى لا تتعثري في الظلام!..

وفيما كانا يتحسسان مواقع أقدامهما على الدرج الى نحو قبو العمارة قالت سلمى:

- لم أتمنى في حياتي أن يسود السلام في العالم كما أتمناه الآن!..

- لماذا؟

- لأن لي زوجا وطفلين!

ولما انتهت الغارة لم يكن التيار قد عاد بعد فجلسا على أقرب مقعد في الصالة، وأشعلت شمعدانا، وقالت سلمى وهي تريح طفلها الرضيع جهاد في حجرها:

- نام الصغيران.. أما أنا فشعرت بانقباض شديد..

- انها غارة وهمية، ولكن من الأفضل أن يتقيد المرء بالتعليمات ليكون مهيئا للأزمات..

وصمت قليلا ثم أردف:

- لقد عينت قائدا للمدرعات!

فقالت بلهجة مشرقة:

- عظيم!

وتبين من فرحتها أنها لم تدرك ما يعني فقال:

- سيكون مقري في الجبهة!

- صحيح!

- ماذا فكّرت اذن؟

- آه!..

وأحست بالألم يعصر قلبها، ويجري الدموع في مآقيها.. الفراق! ان شبحه الرهيب يملأ فؤادها تعاسة.. وأدرك من صمتها أنها تبكي فتحسس وجهها في الظلام وقال بعتاب:

- أهكذا تشجعيني يا سلمى؟

فأكبت على كتفه ولم تحر جوابا..

أيامها السعيدة الرائعة.. كانت تحياها وفي أعماقها الخوف أن تفقدها.. انها تحسها بكل كيانها وعواطفها.. بكل حواسها واحساسها!..

- لماذا تزوجت رجلا عسكريا؟

- كانت احدى أمنياتي وأنا فتاة أن أتزوج رجلا يعيش في خطر، رجلا أحبه ويعيش في خطر حتى لا يفتر شوقي اليه.. لقد عذبتني الحياة بنفس أمنيتي..

وحاول أن يشعل لفافة، وسألها عن علبة الثقاب التي أعطاها اياها لتنير الطريق في العودة فناولته اياها، وعلى ضوء الثقاب خيل اليها أنها ترى الإنفعال باد على فمه المعبر..

أي معنى للحياة ان لم يكن قربها هذا الرجل الحبيب؟ ان يوما يغيب فيه لا يعـد في حياتها، يوما ضائعا لا جمال فيه ولا خصوبة.. فكيف لو حدث وفقدته؟ ففـي ميدان المعركة لا تهدى قطع الحلوى!..

وسمعت صوته في العتمة يهون الأمر عليها:

- سآتي وأراك في اجازاتي..

وشعرت بغرابة هذا القول.. انها لم تهيأ له نفسيا أبدا! وتزاحمت دموعها فـلا تقوى على كبتها..

وحين عاد التيار ورأى عينيها المضرجتين قال يؤنبها برقة وهو يبتسم ابتسامة عريضة تفرج عن أسنان نضيدة لامعة:

- ما بك؟ عيب عليك أن تبكي هكذا مثل طفلتك حنان..

وأشار الى الصغيرة التي استراحت في حجره وراح يتأملها، يتأمـل الطفولـة النائمة التي لا تدري بما يحفل العالم من شرور وظلم وبغضاء وعـدوان، ويبعـد غرة شعرها الكستنائي المذهب عن جبينها ويقبلها ثم يردف بلهجة رقيقة:

- يا أم حنان! أتحسبين نفسك أكثر أمنا في دمشق عندما تبدأ الحرب؟ الخطـر في كل مكان.. بل لعلنا أوفر حظا في الميدان اذ تتاح لنا فرصـة الـدفاع عـن أنفسنا.. وماذا لو نجح العدوان على مصر وعزلت سـوريا؟ ان الإسـتعمار لـن يوفرنا، والمشانق تنصب لإعدامنا.. بل ألست مهددا ليل نهار وأنا هنا في بيتي من عملائهم بعد الأحكام التي صدرت؟

وكفكف دموعها وهو يضحكها:

- الحق عليك أنك تزوجتني! ألم أحذرك؟

وابتسمت للهجته المرحة خلال دموعها.. وبكى جهاد فأخذته الى غرفة النـوم لترضعه، وتبعها زوجها يحمل حنان ويضعها بهدوء في سريرها ثم يقبلها، ثم يقف برهة يتأملها، ثم يعاود تثبيت الغطاء تحت جانبي فراشها ويعاود تقبيلها:

- يا ترى تذكرني حنان حين أغيب؟

ونظر الى زوجته فرأى الدموع تنحدر من عينيها وهي تكب على وجه طفلها والبزازة تهتز في يدها..

وفي اليوم التالي عاد الى المنزل مبكرا قبل انتهاء الدوام.. سمعت سلمى قلقلة المفتاح في الباب وهي واقفة أمام الفرن تهيئ له طعام الغذاء، فأسرعت اليه، وضمها في لهفة وقبلها بشوق غير عادي، فأحست بقلبها يطرق بعنف.. لم تكن تدري أن فراقه سيكون بمثل هذه السرعة.. وحين نظرت في عينيه رأت فيهما دمعة صغيرة تترقرق:

- سأذهب بعد ساعة!

وضمته بعنف الى صدرها كأنما تريد أن تتحدى هذا العالم الشرير الذي يقصيه عنها الى مصير مجهول، والدموع تنساب على وجنتيها.. وفي تلك اللحظة اندفعت حنان الى الغرفة وفي قدميها الصغيرتين يخفق حذاء أمها العالي الكعب وعلى ساقيها القصيرتين يتهدل جوربها النايلون، وقد غاصت يداها بكفوف واسعة، وعلى ذراعها تتأرجح حقيبة يد أمها.. وارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة خفيفة الروح تشبه ابتسامة والدها، وبانت ثنيتاها العلويتين المفترقتين.. وكانت عيناها تلتمعان ببريق العفرتة المستحبة في عيون الأطفال..

وضحك الزوجان وقالت سلمى:

- كنت في زيارة خاطفة لبيت عمي هذا الصباح..

وكانت الصغيرة قد لاحظت أن الجو غير طبيعي فحاولت الهرب ولكن والدها أمسك بها وراح يمطرها بالقبل ثم قال لزوجته:

- ألن تطعميني؟

- ان الطعام غير جاهز.. سأوصي على كباب!

وأسرعت الى التلفون، فهتف بها قبل أن تخرج من الغرفة وهو يداعب صغيرته:

- عندي بذلة ومعطف ميدان.. أتذكرين أين تضعينها؟

- في السقيفة.. سآتيك بها!

لم تكن تستطيع أن تفكر بمأساتها وهي في حركة قلقة تستعجل اللحـام علـى التلفون، وتعد المائدة، وتبحث في أي من الحقائب ستعثر على بذلة الميدان!..

وقفت قربه وهو يخلع ثيابه العسكرية ويرتدي ثياب الميدان المتكـسرة وهـي تشعر أن قلبها موزع شريد ورأسها يدور ولا تدري ماذا تقول وماذا تفعـل، واذا بها تسمع صوت صحن يتحطم على البلاط فأسرعت الى غرفة الطعام، فوجـدت الصغيرة غارقة باللبن من رأسها الى قدميها وزبدية اللبن نثارات علـى الأرض.. واستبد بها الحنق والقهر، ونهرت حنان، وأمسكت بيدها بشدة فأعصابها ثائرة ولا تحتمل المزيد من الإثارة.. هل تضربها؟ ولكن نظرة حنـان الدهـشة المـذعورة جعلتها تكفّ.. آه انها ابنته الغالية.. ابنة حبيبها المسافر فكيف تضربها؟ وانهمرت دموع القهر على وجنتيها واذا بزوجها يدخل ضاحكا ويقول:

- ما هذا يا بابا؟ ما هذا يا حنان؟

وأخذ فوطة وراح يمسح شعرها وساقيها بينما هرعت سـلمى لتأتيهـا بثيـاب نظيفة.. ونظفت الأرض من الزجاج المكسور ومسحتها قبل أن يصل صبي اللحام بوجبة الكباب..

وعلى مائدة الطعام كانا يتبادلان النظرات والابتسامات، وسلمى لا تفتأ تمـسح دمعها بظاهر يدها وفي حلقها تغص اللقيمات، وحنان تنظر فـي عجـب وكأنهـا تتساءل فيم بكاء أمها..

ولم يلبث أن رن جرس الباب فأسرع العقيد عادل يفتحه.. كان سائق الـسيارة العسكرية.. فقبل زوجته وحنان وطفله النائم على عجل.. ونزل الدرج ورفع يـده مودعا قبل أن يتوارى في منعطف السلم.. واندفعت سلمى لتراه من الشرفة وهـو يدخل السيارة.. ورفع رأسه فرآها وحنان ولوح لهما بيده للمرة الأخيـرة وسـمع صوت حنان تناديه "بابا" فأرسل لها قبلة على أطراف أصابعه.. ووقفـت سـلمى مشدوهة القلب بعد أن توارت الـسيارة عـن العيـان تتقـاطر دموعهـا علـى الحاجزالحجري والسيارات العسكرية تتالى في الـشارع تحمـل أفـواج الجنـود السوريين الى المعركة وهم يهتفون وينشدون النشيد السوري.. ورفعـت وجههـا المخضل الى السماء تدعو لهم بالنصر، بينما كانت حنان تلتقط فوطة مـن فـوط

أخيها المعلقة على الحبل المنخفض، وتعلقها على عصاة الغسيل، وتـركض فـي الشرفة ذهابا وايابا وهي تردد الوطن، الوطن!

* * *